النص.. الوقائع..وتناصية الخيال
ورقة حول جمالية الواقعة التاريخية عند " هيجل"

بشير بويجرة محمد
جامعة السانية وهران

لقد تصدى فعل القراءة الحداثي بقوة الى المحاولات القرائية الكلاسيكية المنتجة الى المعنى الأحادي المحق , ولقد قصد ذلك التصدي الى فتح كوة في عوالم النص المقروء ودهاليزه, بغية تلقيحه بجينات قد تصل الى حد التضاد والتناقض رغبة في خلخلة سكونات النص وازعاج ينابيعه .
ولا نحسب أن ذلك آت من العدم , بل كان نتيجة حتمية لطروحات _ هيجل_ في حقل علم الجمال , ولإنجازه القرائي للواقعة التاريخية , تلك القراءة التي أسست فعلا لفلسفة معاصرة في قراءة الواقعة التاريخية حين قسم الإنجازات التاريخية الانسانية الى ثلاث مراتب : -
أ - التاريخ الأصلي , وهو الذي يعرض (كتابة وقراءة) الواقعة التاريخية كما وقعت فعلا " الحاضر الحي في البيئة من حولهم هي المادة الفعلية التي يستخدمونها " (1)
ب - التاريخ النظري , وهو النوع الذي يتبع خطوات الأول غير أنه لا يحصر نفسه في زمن محدد , وهو الذي يمكن ان نطلق عليه إسم (التاريخ الكلي) , لأنه يعرض الوقائع كما وقعت فعلا غير أنه لايحصر نفسه في حدود العصر (2)
ج - التاريخ الفلسفي ؛ أو بصيغة أصح '' فلسفة التاريخ '' وهو ذلك الإنجاز الذي يحققه الانسان عامة والافراد العباقرة على وجه الخصوص , مازجين فيه بين الوقائع التاريخية وبين الفكر الذي يتميز به الانسان عن الحيوان (3)
وبغية إعطاء الفوارق الجوهرية بين هذه المراتب الثلاثة نجد " هيجل " يوكد على أنه " لم يكن ثمة حاجة الى تفسير أو شرح النوعين السابقين من الكتابة التاريخية لأن طبيعتهما واضحة بذاتها "(4) , أما النوع الثالث فيقول عنه بأن " فلسفة التاريخ لا تعني شيئا آخر سوى دراسة التاريخ من خلال الفكر " (5)
نلاحظ إذن من خلال هذه المقولة أن " هيجل " لا يهمه ما يقع فعلا , لكن الذي يحوز على كل إهتماماته ويوفر له جهده ووقته هو محاولة الإجابة على مجموعة من الأسئلة مثل : لماذا وقع ما وقع ؟ وبهذا الشكل بالذات ؟ وإذا لم يقع بهذا الشكل فهل يمكنه أن لا يقع إلا بهذا الشكل ؟ وما موقع تلك الوقائع , وبالشكل الذي وقعت به , من السيرورة الزمنية ؟ وما هي إنجازاتها وفق خصوصيات الواقعة / الزمن ورغبات المتلقي أو الواقعة عليه تلك الوقائع ؟ الى غير تلك الغابة من الأسئلة التي لايملك إنسان واحد , مهما أوتي من جرأة , الإجابة عنها إلا إذا تسلح بالفكر ؛ عرين العبقرية والمخيال. ولعل الذي أبان عن مجموع تلك الهموم والتساولات وإنزالها منزلة المنظومة المعرفية التي ينطلق منها " هيجل " هو قوله ".. إن الخيال الشعري ملزم منذ البداية .. بأن يسبغ على تمثلاته شكلا يتيح له ان يعبر عن نفسه ملء التعبير عن طريق إستخدام الوسائل التي تضعها اللغة في متناوله , وبصفة عامة لا يغدو الشعر شعريا إلا متى ما صب وجسد في الفاظ " (6) يظهر من الاتكاء على إضفاء المسحة الفلسفية على الوقائع , وتاكيد شرعية وجود النص بصبه في مجموعة من التراكيب اللغوية , أن '' هيجل '' يملك مشروعا قرائيا توطره ترسانة من التوجهات والميكانيزمات , لعل أهمها :
- استحالة الممارسة القرائية او النقدية على غير ما هو جدير بأن يكون نصا , تحكمه صيغ وضوابط لغوية
- ربط عملية القراءة بالفكر ضرورة وليس إختيارا .
- الأهمية القصوى التي يجب أن تعطى للواقعة التاريخية , وكذلك لكيفية قراءتها
- عند عنايته بقوة الفكر / الفلسفة كان , في حقيقة الأمر , يرسم توجهه نحو الحقيقة .
- ولقد كان من أهم ملامح ذلك التوجه الغوص في داخلية الواقعة التاريخية وداخلية النص الأدبي .
لعل تلك القضايا مجتمعة هي التي قصدها في قوله : " الشاعر ليس مطالبا إلا بأن يكون - مسكونا - بخيال خلاق ثري " (7) , وذلك رغبة منه في الكشف عن العلاقة المتأصلة بين الواقعة التاريخية وبين وقائع النص الأدبي للاجابة , إختصارا , على السوال العقيم الإجابة , وذلك السوال هو الذي طرحه " سعيد

يقطين " بكل جلاء عبر قوله : " أذكر وأنا صغير جدا أن أحد الأقارب لما إنتهى من حكاية ذيلها بقوله :" عند ما كنت قادما لأحكى لك حملت معي كيس حلوى ، وأنا فى الطريق بقيت الحلوى تذوب تذوب وكل ما حكيته لك كذوب " (8) ، وذلك لأن عقم الإجابة عنه ، أحسب أنه آت من أننا لم نحسم بعد الإجابة على بعض من الأسئلة التالية : هل كل ما يسرده الأديب حقائق تاريخية وقعت فعلا ؟ أم كل ذلك من محض الخيال ؟ أم هناك جزء من الحقيقة - وقائع تاريخية عاشها هذا الأديب أو عايشها - وشئ من الخيال ؟ . واذا ملنا إلى إستساغة الإجابة الأولى فإلى أي مدى يمكن أن تصل إليه هذه الحقيقة ؟ .

ومن هنا قصد " هيجل" فى تعامله مع الوقائع التاريخية إلى صنع إمكانيات قادرة على طرح سرب من الأسئلة التى تغرى الروح والخيال معا بالخوض فى دهاليز المجهول بغية ملامسة الحقيقة : الروح ، الحرية ، بوزرتا الخيال ووقوده ، فجاءت أساليبه التى كتب بها متونه التاريخية شبيهة ، إلى حد كبير ، بأسلوب السرد الفنى ، كما نلاحظ اختياره للغريب والعجيب من الوقائع ومن الأماكن والجهات الحابلة بكثير مما لايمكن تصديق وقوعه فعلا ، ولكنه يبقى هاجسا يقلق القارئ ويزعجه . وطبقا لذلك ، لم يكن إختياره للشرق الأقصى كنموذج يمكن أن يجرب عليه رؤيته الفلسفية تجاه التاريخ فى كتابه " محاضرات فى فلسفة التاريخ " عبثا أو يخضع للصدفة ، بل كان إختيارا واعيا وذكيا جدا ، لأن الكثير من وقائع هذه الأمم القديمة ما زالت مدعاة للتدبر ومثارا للإعجاب نتيجة لارتباط التاريخ بالميثولوجيا عند هذه الأمم ولتلك العلاقة القوية جدا بين الاعتقاد الديني وبين الخضوع للعادة والتقليد ، وكذا عدم وضوح العلاقة بين سلطة السياسي وبين الانصياع لتوجيهات رجل الدين.

فلا غرابة إذن إن وجدنا " هيجل" نفسه يدبج قراءته لوقائع التاريخ فى تلك المنطقة بتراكيب لغوية تقترب من الأدبية وتبتعد عن التاريخية مثل ما نجده يقوله عن تاريخ مصر الفرعونية : " تاريخ مصر على نحو ما هو موجود بين أيدينا ملئ بأعظم قدر من المتناقضات ، فلقد اختلط الجانب الميثولوجي بالجانب التاريخي واختلفت البيانات أو المعلومات وتنوعت بقدر ما يستطيع المرء أن يتخيل ... التشابه بين هذا الاسم (.. مينا .. ملك مصر ..) وبين الاسم اليوناني (مينوس) أو الاسم الهندي (مانو) .. مثير للعجب.." (9) .إن الأسطر القليلة المذكورة آنفا لو أجتثت من مصادرها وسياقها أو لم نحل عليها لوجدنا صعوبة كبيرة فى إسنادها إلى الحقل التاريخي أو الفلسفي أو لكليهما معا ولوجدنا إسنادها إلى الأدب أقرب بفضل ثلاث سياقات :

- ".. ملئ بأعظم قدر من المتناقضات .. اختلط الجانب الميثولوجي بالجانب التاريخي .." .
- ".. تنوعت بقدر ما يستطيع المرء أن يتخيل .." .
- "..مثير للعجب .." .

هذه السياقات التى قصدت دون شك إلى زرع تقاطع حاد بين المقصدية التاريخية والنزوع الفلسفي والهدير الجمالي ، وكذا المبتغى الساكن الروح الانسانية دوما الذى هو ".. المخيال.."، ذلك التقاطع الذى وعاه " ياوس" بل ودعا إلى ضرورة توفره فى أسس " نظرية التلقى" ومرجعياتها حين أصر على ضرورة ".. انعقاد الصلة بين التحليل الشكلي الجمالي ،والتحليل المتعلق بالتلقي / التاريخي ، شأنها شأن الصلة بين الفن والتاريخ والواقع الاجتماعي.." (10) . إن السمات الدلالية لكلمات " المتناقضات" و " أن يتخيل" و " للعجب " لا تقدم معرفة تاريخية محددة تقر حكما أو تثبت لأحداث ووقائع ، بل نجدها تبنى فضاء دلاليا قد لا يوفق كاتب واحد أو قارئ مفرد على تحديد المراد ووعي المقصدية فما بالك إذا تعددت وتنوعت الأنوات القارئة . ولم تكن هذه الميزة الأسلوبية مقتصرة على المتون التاريخية فحسب ، بل نلحظها فى المتون التى تدارس فيها الأجناس الأدبية مثل تناوله ".. فن الشعر.." الذى يصفه ب ".. فن الكلمة.." ثم يعرفه قائلا : ".. هو إدراك مستوى الداخلية ... وهو مستند إلى مبدأ إدراك التمثلات والحدوث والعواطف الداخلية ..."(11) . إن مقصدية الإدراك هنا ، لا يمكن تقييمها جماليا إلا إذا سبقت نزوعا نحو التماهى فى اللامحدد واللامتميز ، وهو التماهى المنتج بالضرورة ، عند الاحتكام إلى تقييم شكلي ، لتوهم جدلية تناقضية بين العناصر الجمالية المبهرة والمدهشة ، وذلك على اعتبار أن إطلاق حكم ".. الجمال و المتعة .." خاضع ومرتبط بالتفرد و التميز و التجاوز . ومن هنا ، يمكننا القول بأن " الواقعة التاريخية" حسب التمثل الفلسفي ل " هيجل" لاتشكل ظاهرة جمالية فى حد ذاتها ،أو تختلف وتتباين مع بقية الوقائع الأخرى ، لأن تلك الوقائع كانت نمطية فى نشوئها - بسبب تأزم وضع ما بين أطراف متعددة ذات مصالح متناقضة - ومتقاربة

في نتائجها ذات الملمح التراجيدي في الغالب الأعم - حين تخلف تلك الوقائع تجليات حضارية تختلف في القيمة والتأثير - ولكن الأهم في كل ذلك هو قراءة تلك الوقائع ، وكذا نوعية الاعتبار منها ومداه أولا ثم سكونه داخل الروح الانسانية المبدعة حينا من الدهر لتعود فتشع بمستويات إدراك لقيمة تلك الواقعة بغية الإجابة على كل الأسئلة المحتمل طرحها. وعندئذ فقط يمكننا - نحن القراء - أن ننشئ تلك المسافة بين النص السردي - بصفته وعيا يميز به القارئ نفسه عن الكاتب - وبين النص اللاسردي في نطاق القابل للسرد كتلك الوقائع التي عاشها أو عايشها الكاتب ، سواء كان ذلك ضرورة أم إفتراضا ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه إنشاء : " .. إنجاز المسافة بين الكتابة والواقع , بين الذاكرة والقصة في الزمن الجديد الذي يتجاوز زمن الواقع والفعل اللذان ينتهيان إلى طريق مسدود " (12) . وهنا فقط يمكننا القول بأن إنجاز تلك المسافة لايمكن أن يوكل أمره إلا " للروح " في حالة التماهي مع الواقعة التاريخية كيف ما كان أمرها ونوعها وأين ما كان موقعها أو فضاؤها حتى يصبح علينا ضرورة أن "..أول ما ينبغي أن نتعرف عليه بدقة هو - الروح - العيني لشعب ما وما دام روحا فلا يمكن إدراكه إلا بطريقة روحية "(13) . كما تجب الإشارة هنا إلى أن استعمال - الروح - عن " هيجل " لم يكن منصبا على الدلالة الفلسفية المحض , بل كان ذا صلة وثقى بالجدل / العقل في خصوصيته بالقدرة على التمييز والحكم على المستويات الجمالية , كما أن - الروح - الهيجيلي في حقيقة الأمر هو مطية لما هو أخلد وأسمى ألا وهو " الحرية " . وذلك ما يجعل رؤية " هيجل" للواقعة التاريخية تصب مباشرة في فيض " المخيال" وفيافيه , حتى أنه أكد على أن مسار التاريخ وتراتب وقائعه هو في حقيقة الأمر " تقدم الوعي بالحرية .. والدافع لهذه الحركية هو التناقض الموجود بين الواقع الخارجي وما تريد الروح أن تحققه ..(14) . إذن بغية " هيجل " من قراءة الواقعة التاريخية تتقاطع مع مقصدية كاتب النص الأدبي ,حيث إن كلا منهما يركب مطية الواقعة التاريخية بأدوات ووسائل قد تكون مؤتلفة أو مختلفة : هيجل وسائله الواقعة التاريخية فالروح فالحرية ثم اللغة , أما كاتب النص الأدبي فوسائله الواقعة التاريخية والحرية فالمخيال ثم اللغة , مع التأكيد على أن الأداة المشتركة التي هي " اللغة " يختلف الاثنان في توظيفها , فبينما يعتمد هيجل على مبدأ قدسية اللغة نجد كاتب النص الأدبي يرى في اللغة حقلا للإبداع والتجاوز , كما يجب الجزم في نهاية المطاف بتلازم الروح مع اللغة وسكون الحرية في رحم المخيال وحضنه. وعليه فلا غرابة , إذن , إن خصص الجزء الثاني من كتابه " محاضرات في فلسفة التاريخ " لحضارة الشرق : الصين , الهند , فارس , مصر , حيث يرى بأنه ".. في أسيا أشرق ضوء الروح .. التاريخ يبدأ بدول العالم الشرقي وليس قبل ذلك " (15) .

الإحالات :

1 - هيجل " محاضرات في فلسفة التاريخ " ترجمة وتقديم وتعليق د . إمام عبد الفتاح إمام , مراجعة د . فؤاد زكرياء , دار الثقافة للنشر والتوزيع , القاهرة , ج1 1986 ص 69 .

2- م , س , ص 72 .

3- م , س , ص 77 .

4- م س .

5- م , س .

6- هيجل " فن الشعر " ترجمة جورج طرابيشي, دار الطليعة , بيروت , ط 1 فبراير 1981 ص 68

7- م , س , ص 56 .

8 - سعيد يقطين " القراءة والتجربة " , دار الثقافة , ط 1 1985 ص 29 .

9 - هيجل " محاضرات في فلسفة التاريخ " مراجعة د. محمود حمدي زقزوق , ج 2 ص 190 .

10 - روبرت هولب " نظرية التلقي .. مقدمة نقدية " ترجمة د . عز الدين إسماعيل , النادي الأدبي الثقافي , جدة , ط 1 , 1994 , ص 45 .

11 - هيجل " فن الشعر " , م , س , ص 7 .

12 - " القراءة والتجربة " م , س , ص 140 - 141 .

13 - هيجل " محاضرات في فلسفة التاريخ" ج 1 , م , س , ص 146 .

14 - م , س , ج 2, ص 7 .

15 - م , س , ص 218 .